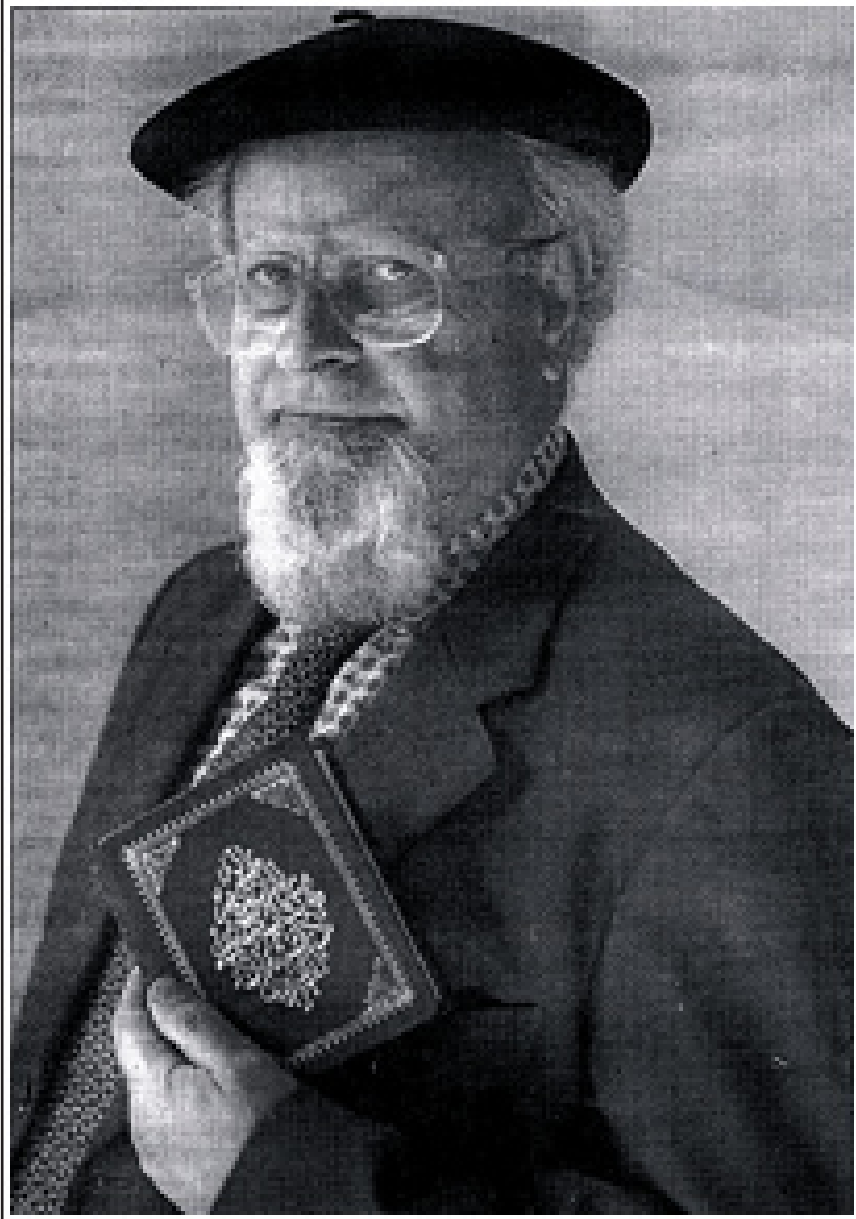






# عرفان وتقدير للأستاذ ميكيل دي إبالزا

الهجرة والرحلة  
عدد خاص



ميكيل دي ابالزا

# عرفان وتقدير

للأستاذ ميكيل دي إبالزا

## الهجرة والرحلة

مجلة علمية يصدرها مخبر الأبحاث الاجتماعية والتاريخية حول  
حركات الهجرة جامعة منتوري قسنطينة

العدد الثالث، أبريل 2010

عدد خاص

مجلة الرحلة والهجرة مخبر الأبحاث حول حركات الهجرة، جامعة منتوري  
قسنطينة عمارة العلوم ص.ب. : 317 قسنطينة - الجزائر  
الهاتف : 21 34 20 30 213 + الفاكس : 25 81 81 31 213 +

## المدير

الأستاذ الدكتور كمال فيلالي  
مدير مخبر الدراسات والابحاث حول حركات الهجرة،  
جامعة منتوري قسنطينة

## هيئة التحرير

أ. د. كمال فيلالي، د. كريمة بن حسين،  
صبرينة رماش، د. القلي العربي.

## الهيئة العلمية الاستشارية

أ.د. إيران ميليكوف (جامعة سطراسبورغ)، أ.د. فليفل السيد (معهد الدراسات الإفريقية، جامعة القاهرة)، أ. د. فانسان برنارد (كلية علوم الاقتصاد جامعة المدرسة العليا للدراسات السسيولوجية، جامعة السربون باريس)، أ. د. كمال فيلالي (مخبر الدراسات والأبحاث السسيوتاريخية حول حركات الهجرة)، أ. د. ميكل دي ابالزا (معهد الدراسات العربية والإسلامية، جامعة أليكنت اسبانيا)، أ. د. حسني بوكرزازة (دائرة الجغرافيا جامعة منتوري قسنطينة)، أ. د. عبد الوهاب شمام (كلية علوم الاقتصاد جامعة، منتوري قسنطينة)، أ. د. عبد الجليل تميمي (مؤسسة تميمي للبحث والتوثيق - زغوان، تونس)، أ. د. خيرية قاسمي (قسم التاريخ جامعة، دمشق، سوريا).

سكرتاريا : عبد الغفور بوسنة

تصميم الغلاف والتنسيق : زهير بن عميرة

مطبعة : ألكسندر / قسنطينة / الهاتف : 031 62 01 18

## عنوان المراسلات

مجلة الرحلة والهجرة مخبر الأبحاث حول حركات الهجرة، جامعة  
منتوري قسنطينة عمارة العلوم ص. ب. : 317 قسنطينة - الجزائر.

الهاتف : 21 34 20 30 213 + الفاكس : 25 81 81 31 213 +

الموقع والبريد الإلكتروني :

<http://www.kml-filali.com> / [kmlfilali@gmail.com](mailto:kmlfilali@gmail.com)



الغلاف

تصميم : زهير بن عميرة

صورة ميكال دي إبالزا من مقطع فيديو - كمال فيلاللي

لا تلزم الآراء الواردة في هذه المقالات إلا أصحابها



## فهرس الموضوعات

### القسم العربي

- 11 عرفان وتقدير لشخص الأستاذ العلامة ميكيل دي إبالزا .....
- ♦ هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن  
17 الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر .....
- أ. د. كمال فيلاي
- ♦ التّنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري  
31 / الثاني عشر الميلادي .....
- د. يوسف العابد
- ♦ الرحلة بين النبل والجشع الإنساني .....
- د. العربي القلي





## عرفان وتقدير

لشخص الأستاذ العلامة ميكيل دي إبالزا

ميكيل دي إبالزا Mikel de Epalza مدين بالكثير للجامعة الجزائرية على وجه الخصوص التي كان عضو بهيأة تدريسها في السبعينات وللدراسات العربية على العموم. شخصيا كانت لي الفرصة والشرف للتعرف عليه من خلال العديد من الحلقات الدراسية التي كان ينظمها دوريا في سان كارلوس دي لا الرابطة San Carles de la Rapita وندوات قسم الدراسات العربية التي كان يشرف عليها شخصيا بجامعة أليكانتي Alicante ومن خلال هذه الندوات العلمية اكتشفت الرجل الإنساني، والمعلم المبجل والباحث البارِع والعالم المتواضع، فأبيت إلا أن أكون ضمن أوليائك الذين يعبرون عن امتنانهم وعرفانهم لأحد أبرز علماء الاستشراق في القرن التاسع عشر، من خلال هذه الأعمال التكريمية التي يريد مختبر الدراسات والبحوث الاجتماعية التاريخية

حول حركات الهجرة تكريسها باللغات التي كان يكتب بها العلامة كعربون شكر لما قدمه للدراسات التاريخية المتوسطة والدراسات الموريسكية والإسلامية، وللإسلام من خلال ترجمته للقران الكريم على وجه الخصوص، وكذلك، ولما لا، اعترفا بالجميل لما قدمه لي شخصيا من خلال إشراكي في منتدياته الفكرية ذات الطراز العالي في مطلع دربي العلمي.

ولد ميكيل دي أبالزا Mikel de Epalza في بو (فرنسا) Pau، سنة 1938، وقد ذهب ضحية لحادث مرور مؤسف، قبل عام تقريبا (مايو 2009) وهو في عنفوان عطائه الفكري.

ميكيل دي إبلازا عالم، إنساني محب للآخر، متواضع، طيب المزاج عذب الحديث، باحث دون كلل، متعدد اللغات (العربية والفرنسية والكتالونية والاسبانية)، دَرَس بجامعة برشلونة وليون، ووهران والجزائر ثم تونس (في السبعينات) ومدير وانهي كأستاذ اللغة العربية والدراسات الموريسكية والإسلامية بجامعة أليكانتي، كأحد ألمع علماء الدراسات الإستشرافية المغاربية.

كان مدافعا قويا، بلا ملل ولا كلل، عن الحضارة الأندلسية وبحماس منقطع النظير عن اللغة العربية. إذ طالب الطبقة السياسية في إسبانيا بالرقى باللغة العربية إلى مقام اللغات المبجلة بعد الكتالونية والاسبانية باعتبارها جزءاً من تراث إسبانيا العلمي والتاريخي.

كان ميكيل صاحب بعد سياسي محنك رائد لفكرة اتحاد دول البحر المتوسط، كان نصوحا يحضى باحترام علماء الشرق والغرب ورجال السياسية، ناضل طيلة دربه العلمي لتعزيز العلاقات الثنائية

بين دول ضفتي البحر الأبيض المتوسط، وقد كللت جهوده النضالية بالنجاح إذ أنجبت أول مؤتمر سياسي لدول البحر الأبيض في برشلونة لإنشاء صرح متوسطي وخلق منطقة سياسية واقتصادية مغاربية - أوروبية، وذلك من خلال شذب الصراع الديني الصليبي الإسلامي الذي بنيت عليه النظرة العدائية للتاريخ في البحر المتوسط والتطلع إلى المستقبل المشترك.

كان شغوفًا بالموريسكين لدرجة أنه تابع سيرتهم التاريخية ونقّب عن آثارهم في المهجر بعد سقوط غرناطة من خلال أبحاثه الميدانية في شمال إفريقيا ولا سيما في تونس. على هذا الشغوف، شاء القدر أن لا يشهد ميكيل نشر آخر عمل له، ظهر (بعد وفاته) حول: "إرث الموريسكيون في تونس" الذي كان قد بذل من خلاله جهدًا كبيرًا كان قد حدثني عن مشروعه هذا قبل سبع سنوات خلت. لقد أمضى حياته كلها جاهدًا لترويج تاريخ بناء شامل يدعو للحوار بين المسلمين والمسيحيين والتعايش السلمي في البحر الأبيض المتوسط. وكان معارضًا للحجة السياسية التي بنيت على "صراع الحضارات". كما كان محبًا للمغرب الإسلامي شغوفًا بجمال طبيعته وثرًا تاريخه الذي انبثقت عنه الأندلس كمركز إشعاع للمعرفة الإنسانية.

تلقى ميكيل دي إبالزا "الجائزة الوطنية للترجمة" من خلال نشر (Alcora, 2003)، وهي أول ترجمة للقرآن الكريم إلى اللغة الكاتالونية، قدمنا عرضًا لهذا العمل الجبار في دورية (EHSS-ASSR)، بالسوربون، باريس، (2003). مثل جاك برك Jaques Berque لقد أعترف ميكيل

أن ترجمة القرآن الكريم هي أكبر مهمة وأكثر صعوبة واجهها في حياته الأكاديمية، ذلك لأن "ترجمة القرآن لا تتوقف فقط على إتقان اللغة العربية والكاتالونية، ولكنها تتطلب الحكمة والتأمل، واحترام الذاكرة، وتنشيط تاريخ النبوة." وقد ألحق بالترجمة خمسة من دراساته النظرية في هذا المجال. ولهذا بلغ عدد صفحات أول قرآن باللغة الكطالانية 1400 صفحة.

وقد بلغت منشورات ميكيل قرابة الستين كتاب نذكر منها: "المغاربة، قبل وبعد الانكزسيون (1992)"، الأخ انسيلم Turmeda (عبد الله ترجمان)، والجدل بين المسلمين والمسيحيين في " (1994)"، "يسوع بين اليهود والمسيحيين والمسلمين ذوي الأصول الاسبانية (من السادس إلى السابع عشر قرون)" (جامعة غرناطة، 1999)، "القرآن وترجماته" (جامعة أليكانتي، 2008). كما نشر العديد من البحوث في المجلات المرموقة منها حول "المدجر" (المسيحيين الذين يعيشون تحت النفوذ العربي في الأندلس)، وتاريخ المغاربة والإسبان في شمال أفريقيا. بالإضافة إلى التدريس فقد ساهم في العديد من ملتقيات الفكر الإسلامي بالجزائر كما نظم شخصيا ملتقيات حول "الأربطة في الإسلام" كنا قد شركنا في أغلبها و كانت تعقد دوريا (1995، 1997، 2000، 2003). في سان كارليس دي الرابطة San Carles de la Rapita (التي كانت بمثابة ثغور الأندلس مع الغرب المسيحي) منطقة حدودية، في ذلك الوقت، تفصل دار الإسلام عن دار الحرب) كما نظم ميكل العديد من المؤتمرات الدولية كمؤتمر "كارلوس الخامس، المركسيون والإسلام" (Carlos V los moriscos y el islam). وقد

سأهمنأ بورقة بعنوان "شارل الءامس فف الكءاباء الءزائرفة". وفف إءار أبعائه المفءائفة أءءشف مفكل رفقة مارفا ءفسوس روبففرأ ءلاء رباطاء بشرق الأءءلس ءعوء إلف العهء الأموف.

ءف إبالزا كان مءزوءا من مارفا ءفسوس روبففرأ، وهف أفضا أسءاذه الءراساء العربفة والإسلامفة، ءوففء بفعل ءزنهأ الشءفء، شهرفن فقط، بعء رءفله إلف المولى الأعظم.

أ. ء. كمال ففلالف





## هجرة علماء غريس وتلمسان إلى<sup>1</sup> فاس في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر

أ. د. كمال فيلاي

مدير مخبر الدراسات والأبحاث حول حركات الهجرة،  
جامعة منتوري قسنطينة

### المقدمة :

لقد كانت هجرة العلماء ورجال الدين إلى فاس مبكرة وذلك لما كانت تحتله هذه المدينة من مكانة دينية وعلمية مرموقة منذ مطلع القرون الوسطى إذ كانت مشتتة للإشراف، منبرا للدعوة الإسلامية ومزارة كبرى للأولياء والصالحين وملتقى طرق السياحة. وقد زادت وتيرة الهجرة الدينية والعلمية إلى فاس بعد الغزو الإسباني لسواحل وهران في مرحلة أولى وتفاقت بعد الحملات العثمانية على تلمسان في مطلع القرن السادس عشر.

وسنحاول من خلال محاضرتنا هذه إظهار الدور الذي لعبته فاس في احتضان الهجرة العلمية والصوفية وصدارة الرياسة الدينية بعد أن كانت تلمسان عاصمة الزهد والفقهاء المالكي.

1. الحفناوي ص. 12

هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر ...

لقد بدأت الهجرة الدينية من الغرب الجزائري إلى فاس في منتصف القرن الخامس عشر وكانت في هذه المرحلة حرة بدافع الرغبة في التعلم والمبارزة والسياحة والمجاورة لما كانت تلعبه فاس من دور الريادة في العلوم النقلية أو المنقولة بعد أن بزغ شمسها في عهد الأدارسة وزادت اشرفتها في مطلع القرن الخامس عشر. فكان إبراهيم التازي القطب الصالح والولي الزاهد قد هاجر إلى فاس واستقر بها قبل غزو الأاسبان بلاد المغرب إلى أن توفي بها سنة 866 هـ. وهو إبراهيم بن محمد التازي من بلاد الريف نزل بوهران ودرس بها ثم عاد إلى تونس حيث أخذ عن الشيخ عبد الله العبدروسي وبعد إن حج هاجر إلى تلمسان ليلزم الشيخ محمد ابن مرزوق فأجازه. واستقر بفاس زاهدا وعالم بقية أيام حياته.

كما كانت هجرات قصرية سببها الحروب والغزوات وأهم الهجرات القصرية الجماعية نحو فاس جاءت بعد فشل الحملة السعدية سنة 957 هـ على تلمسان، إذ رافق السلطان السعدي عند عودته إلى بلاده كثيرين من العلماء ورجال التصوف الذين كانوا قد أيدوا تدخله بتلمسان<sup>1</sup>. كما حدثت هجرة جماعية أخرى سنة 968 هـ على اثر حملة خير الدين على تلمسان التي أشعلت نار الفتنة التي حدثت جراء انقسام علماء تلمسان بين مؤيد ومعارض للترك فأستغاثوا بالسعديين ومن بين هؤلاء نذكر احمد العبادي الذي حل بفاس واستقبل بحفاوة من سلطانها وفقهائها إذ قدم

1. السلالي ص. 147

له السلطان ألف مثقال وأمر بإسكانه في إقامة مريحة وقال : لا تساووه بأحد من الفقهاء فان همته كبيرة<sup>1</sup>.

وقد حلت الهجرة القصرية الثالثة بعد تنصيب باي الغرب إذ حاول العثمانيين من خلال سياستهم الدينية تشديد الرقابة على العلماء ورجال التصوف المعارضين لسياستهم مما أدى بالعلماء والمتصوفين الحقيقيين وليس بأدعياء الولاية كما يقول عبد الكريم الفقون إلى النفور والهروب إلى عواصم العلم ومقاصد الحكمة.

ففر خيرة العلماء ورجال التصوف الى فاس وكان أهمهم الشيخ الأنصاري السجلماسي يقول الكتاني من جور الأتراك فأقفل مسرعا إلى الحج وفي طريقه توقف بالقاهرة فأخذ في الأزهر عن أحمد الغنيمي وأحمد بن عبد الوارث البكري ثم عاد إلى فاس وصار فقيها إلى أن وافته المنية<sup>2</sup>.

وقد كان جور العثمانيين في الجزائر هو أهم أسباب هجرة العلماء ورجال الدين فابن لولو التلمساني مفتي الجامع الأعظم، وهو من عظماء فقهاءها، هاجر إلى ضواحي غريس نتيجة لسوء معاملة الحكام العثمانيين له ويذكر أن القائد أراد استرضائه بالهدايا إلا أنه قرر الهجرة. وتقول الرواية أنه أمسك بلحية القائد التركي حتى أسقط في يديه شعيرات منها وأقسم أن يهجر إلى

1. ابن عساكر ، الدوحة ، 106

2. الكتاني، الجزء الثاني ص، 363

## هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر ...

بلاد النصرى<sup>1</sup>. فأتجه إلى معسكر ووجد قوما يستعملون أسماء أعجمية فقال : « هنا تبرأ يميني »<sup>2</sup>.

وذكر صاحب الأس أن هجرة المغراويين التلمسانيين لفاس بدأت بدخول الأسبان وهران. تقدم فيهم الشيخ العالم قاضي ومفتي فاس وعميد علمائها خطيب جامعها الأعظم وشيخ الجماعة بها، أبو عبد الله سيدي محمد بن عبد الرحمن المغراوي. هاجر إلى فاس سنة 958 هـ زمان السلطان أبي عبد الله محمد الشريف السعدي<sup>3</sup>. ولما دعا صيته بفاس، قلده السلطان رئاسة الإفتاء بها والتدريس والخطابة بجامع الأندلس ثمان سنين زمن أبي زيد عبد الرحمن ابن إبراهيم الدكالي ثم بجامع القرويين ثلاث عشرة سنة. وكان إمام الأئمة، تزلع في المنطق والعقائد والبيان والفقہ والحديث والتفسير وغير ذلك، كما كان مرجعا لا يستغنى به في الإفتاء<sup>4</sup>.

في فاس أخذ عنه الشيخ أبو المحاسن الفاسي ولازمة كثيرا وقرأ عليه التفسير والأصول والفقہ، و« الكبرى » و« الصغرى » للسنوسي. قال ابن مريم : « انه أخذ أيضا عن الشيخ الإمام الزاهد أبي عثمان الكفيف، وعن الشيخ السنوسي، وعن الشيخ أبي العباس ابن زكري. وكما أخذ الشيخ أبو المحاسن عنه عقائد التوحيد، وكان ماهرا كما شهد له اليسيتي وغيره » : إنه كان من العلماء الراسخين في علوم

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر 1. ص. 428.

2. نفس المرجع. ص. 428.

3. الكتاني، زهرة الأس في بيوتات أهل فاس، تحقيق علي بن المنتصر الكتاني ط1 ج1 مطبعة النجاح، 2002، ص. 113.

4. الروداني.

الدين، وخطيبا بالقرويين، ومفتيا بها<sup>1</sup>. وطالت أيام رئاسته بفاس حتى أسن وتوفى سنة 981 هـ<sup>2</sup>.

ومن خيرة العلماء الذين هاجروا إلى فاس الفقيه العلامة أبو الحسن علي بن عبد الواحد بن محمد الأنصاري السلجماسي<sup>3</sup>. رحل بعد الأربعين من بلاده هروبا من ظلم الأتراك أيضا فحج، ودخل مصر في سنة 1043 هـ، وأخذ بها عن أحمد الغنيمي وأحمد بن عبد الوارث البكري وعن النور علي الأجهري المارّ ولقيه الشيخ الإمام عبد القادر بن مصطفى الصّفوري الدمشقي في طريقه إلى القاهرة، فأخذ عنه ثم عاد إلى فاس عالما.

وفي فاس جالس بها خيرة العلماء فأخذ عنهم وكان جُلّ أخذته عن الأستاذ نخبة الشرف أبي محمد عبد الله بن علي الحسني السلجماسي والعالم الولي أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدلائي الصنهاجي، وحافظ العصر أبي العباس أحمد بن محمد المقرّي التلمساني، وبلغ الغاية القصوى في الرواية والمحفوظات ورحل إلى الجبل الأخضر حيث السنوسي وبقي هناك إلى أن وافته المنية.

من الذين هاجروا إلى المغرب الأقصى رفقة السلطان السعدي بعد فشله في حملته ضد تلمسان نذكر محمد بن أحمد التلمساني المدعو ابن الوقاد التلمساني هو أبو عبد الله بن أحمد، المعروف بإبن الوقاد، ولد في تلمسان ونشأ بها وتلمذ علي يد شيوخها<sup>4</sup>، وحل بتارودنت من

1. ابن مريم : المصدر السابق ،ص. 261.

2. ابن عسكر : المصدر السابق، ص. 104.

3. محمد الأفراني المراكشي، الصدر السابق ،ص. 214.

4. محمد أبو الأجنان وعثمان بطيخ : المرجع السابق، ص. 359-360.

هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر ...

بلاد الريف، وولي به قضاء الجماعة حوالي ستة أشهر، ثم أعفي لكونه لا يعرف البربرية ثم وجه به إلى سجلماسة قاضيا خطيبا ومنها أنتقل إلى مكناسة الزيتون وتولى مهمة القضاء والخطابة بجامع الأندلس.

وظل يتنقل بين مكناسة وفاس ومنها عاد لتارودانت مفتيا وخطيبا. وهو أول من خطب فيها ببراعة اللسان إذ كان السلطان المنصور يقول فيه : « ليس عندنا أخطب من ابن الوقاد إلا أن الله أختاره لتارودانت وإن لم يكن لكرسي الخلافة ».

أخذ رحمه الله عن الإمام التنسي، وعن سيدي شقرون بن الوجدي مفتي مراكش وعن ابن جلال والبسيثي وغيرهم.

وفيما يذكر عنه أن جاءته امرأة من جيرانه فقالت له رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، فقال لي : إقرائي السلام للشيخ التلمساني، فبكى وقال : نعت إلي نفسي يا فلانة، ولم يبق إلا أياما قليلة على قيد الحياة<sup>1</sup>.

وكان من جملة العلماء والفقهاء الذين خرجوا إلى فاس على اثر الحملة السعدية، محمد بن أحمد التلمساني وهو الإمام الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد المري الشريف التلمساني، كان فقيها صالحا يقوم على الرسالة بنقل سائر شرائعها<sup>2</sup>.

أخذ عن شيوخ كثيرين أمثال الشيخ أبي زيد عبد الرحمان وابن أبي عمران موسى بن يوسف المشدالي، وأبي عبد الله بن عبد النور

1. الحفناوي، المصدر السابق، ص. 78.

2. الجبرتي، ج3، ص. 321.

وإبراهيم ابن حكم السلوي الكثاني وأبي عثمان سعيد بن إبراهيم بن علي الخياط وأبا إسحاق الطيار وأبا عبد الله محمد القرموني<sup>1</sup>.  
وولي بها الفتوى وأحسن مقامه لبراعة علمه وفصاحة لسانه<sup>2</sup>.  
توفي محمد بن أحمد التلمساني سنة ثمانية عشر وألف<sup>3</sup>.  
ومن أهم علماء تلمسان الذين خرجوا على اثر الحملة السعدية نذكر أيضا محمد بن شقرون الوجدجي الذي ولد بتلمسان (908هـ - 1503م) ونشأ فيها، اعتبره صاحب الدوحة من أكابر فقهاء المالكية في عصره حتى عرف بمالك الصغير في وقته<sup>4</sup>.  
وقال عنه صاحب السلوة: «بأنه كان عارفا بالأصلين والبيان، والمنطق والفرائض والحساب، نافذا في الفروع منطبعا معها يحسن النوازل... طليق اللسان كثير المعرفة»<sup>5</sup>.  
لقي المشايخ الأكابر وأخذ عنهم كالشيخ أحمد بن أطاع الله والشيخ المالك البرجي وتفقه على الشيخ سعيد بن أحمد المقرئ، والشيخ إبراهيم الشاوي والشيخ أبي العباس ابن زكري الذي أخذ عنه علم الكلام<sup>6</sup>.  
هاجر إلى فاس مع ابن جلال بعد الفتنة التي عمت بين علماء تلمسان سنة 967 هـ حول الوجود العثماني، فنال شرف عظيم عند

1. عبد الرحمان ابن زيدان، ج2، ص 434.

2. محمد أبو الاجضان، ص. 356.

3. ابن مريم . ص. 254.

4. العباس بن ابراهيم السملالي، ج5، ص. 171.

5. محمد بن عسكر، ص 106

6. ابن ميمون، ص. 71.

هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر ...

الأمير السعدي عبد الله بن محمد، وقلده الفتوى ورئاسة العلم بمراكش. وكان يحضر مجلسه أعيان وفقهاء والأمير السعدي بنفسه<sup>1</sup>. محمد بن الحاج بن أحمد بن الشريف التلمساني كان ممن رافقوا الأمير السعدي<sup>2</sup>.

وهو تلمساني النشأة، كان فقيها عالما بمختلف العلوم أخذ عن الكثيرين أمثال محمد بن أحمد بن مليح السراج والشيخ محمد بن أبي بكر الحرار الأنصاري، والشيخ محمد بن عبد الله ابن سماك العالمي والشيخ محمد بن محمد العكاري المراكشي والشيخ محمد بن عبد الخالق الشرقي.

كان محمد التلمساني مستبحرا في جميع العلوم، له تأليف وتصانيف من نظم ونثر في التصوف<sup>3</sup>.

ذكره صاحب الأعلام قائلا : « هو محمد الحاج بن أحمد المري التلمساني، من أولياء الله الصالحين، وخيرته العارفين، عالما عاملا متفننا متصوفا، فقيها زهدا متقشفا ورعا، له اليد الطولي في كل فن فكان ذا لفظ بليغ، وقلم بارعا رفيع، أخذ ذلك عن مشايخ جمعة، واجازه في ذلك غير واحد، منهم، العلامة سيدي عبد القادر الفاسي ن الذي سمع عنه التفسير، والأحياء والحديث، والتصوف، وأوائل الكتب الستة، ومنهم سيدي محمد بن سعيد المرغيثي وأخذ إرادة وأنتساب عن العارف الكبير سيدي محمد بن ابراهيم التاملي.

1. العباس بن ابراهيم السملالي، ص. 172.

2. الكتاني محمد جعفر ج 4 ، ص. 142.

3. العباس بن ابراهيم السملالي : الأعلام المصدر السابق ج5، ص. 357.



دخل فاس مع جملة الفقهاء الذين رافقوا الحملة السعدية فأحسن استقباله ومقامه إذ ولي الخطابة في الجامع ومنح له بيتا جميلا للإقامة.

ظل في فاس خمسة سنوات ثم رحل إلى مراكش قصد التزود بالعلم، فدرس بها وأفتى وكان أول من حل عائلة أولاد المريي الشرفاء بفاس ثم مراكش أين توفي سنة 989 هـ وأقيم له ضريح أصبح مزار للتبرك<sup>1</sup>.

وقد استمرت الهجرة إلى بلاد المغرب خاصة في عهد حسن باشا الذي نقم كثيرا على بعض علماء الجزائر من غير الموالين للحكم العثماني الشئ الذي دفع بالبعض منهم إلى الهجرة. أمثال ابن تكوك. هو الشارف بن الجيلالي بن تكوك من بلد مستغانم، نشأ وتعلم بها كان فقيها عالما متضرعا في مختلف العلوم النقلية خاصة منها النقلية.

قرأ كبار مشايخ الجزائر منهم الفقيه ابن حمزة، والحاج محمد ابن أبي سيف والعلامة السيد عبد الله بن العيدوني، الفحلي، وعبد الله بن الخطاب المجاهدي والشيخ أبو عبد الله اليحصابي، والشيخ أبو الخير الجزائري.

قيل عن ابن تكوك أنه أول من نشر الطريقة السنوسية بالجزائر باعتباره قريب الشيخ محمد بن علي السنوسي، وأسس بها معهدا لذلك، وظل أبناءه يتوارثون إدارته، وفي هذا المعهد كانت تنشد قصائد الغوثية.

1. الكتاني محمد جعفر، ص. 337.

هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر ...

هاجر الشارف بن تكوك من الجزائر إلى المغرب الأقصى في نفس الظروف التي هاجر فيها شيخه وقريبه محمد بن علي السنوسي، فبعد أن قتل الباشا حسين شيخه ابن القندوز التوجيني، غادر الجزائر واتجه إلى المغرب الاقصى بعدما رثى شيخه المقتول  
قائلاً :

ارحم شيخي بالقندوز	مريد الشيخ المعزود
يا رب عذب حسن	بركت بيت الله تعيان
بالنصر تبت يدا	ازجر علينا الأعداء
ما يعرفوش الردا	أصحاب الدنيا الفانية
وبسورة الإخلاص	الفالق مع الخناس
أمنعني من الوسوس	فلا يقرب ليا <sup>1</sup>

### الهجرة بحثاً عن المناظرة

وكان من العلماء المغوليين في العلم من يهاجر من بحثاً عن المباراة والمناظرة مثل أبو راس الناصري (1150 هـ - 1228 هـ : 1832) ولد بين جبل كرسوط وهونت. بعد وفاة أبوه انتقل إلى معسكر لدراسة الفقه واللغة والحديث، ومنها رحل إلى مدينة مازونة فدرس على فقهاء مختصر خليل وحفظه وفهمه معنى ولفظاً وكانت هجرته إلى مازونة لشغوفه بعلمائها إذ يقول « ولما ذكر لي مازونة وكثر مجالسها وقريحة أشياخها سافرت إليها »<sup>2</sup>.

1. الراشدي : المصدر السابق، ص. 51.

2. محمد بن أحمد أبي راس الناصر : عجائب الأسفار، المصدر السابق، ص. 20.

وفي مازونة، درس على فقهاء كبار منهم الشيخ مصطفى بن هني والشيخ محمد بن إبراهيم والشيخ مصطفى بن يونس، كما قرأ الفرائض على الشيخ البدالي والقضاء والشهادات على يد الشيخ محمد بن عبد القادر<sup>1</sup>.

وبعد إجازته رشحه الشيخ المشرفي أمام الراشدية في معسكر ليكون خليفته في التدريس. اعتلائه منبر الراشدية جعل بايات الغرب الجزائري، يخصونه بعناية واحترام كبيرين<sup>2</sup>.

وقد بدأ مشوار رحلته من تونس فدرس النوزال على الشيخ القاضي سيدي محمد بن قاسم المحجوب، ولم يكتف بدراسة فقه المالكية بل اهتم بفقه المذاهب الأخرى على يد شيوخ تونس فواصل هجرته إلى مصر والحجاز<sup>3</sup>. أما التصوف فقد درسه على يد علماء مازونة مثل موسى بن يحي المازوني صاحب «ديباجة الافتخار في مناقب الأولياء والأخيار» والشيخ الصباغ القلعي وأبي عبد الله المغوفل، وفي تونس نهل علم الطريقة من الشيخ عبد الله السنوسي المغربي<sup>4</sup>.

هاجر أبوراس إلى المشرق مرتين فزار الشام والحجاز ومصر والتقى بعلمائها في القاهرة والإسكندرية ومكة والمدينة، ثم عاد إلى المغرب الأقصى وتونس واستقبله علماء البلدين في فاس وتونس،

1. محمد بن الطيب القادري، ص. 116.

2. محمد بن أحمد أبي رأس الناصري، عجائب الأسفار، المصدر الساب أحمد بن محمد (ابن القاضي) : المصدر السابق، ص. 184. ق، ص. 20.

3. محمد بن أحمد أبي رأس الناصر، ص. 24.

4. محمد بن أبي راس : منته، المصدر السابق، ص. 150.

هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر ...

ولم تكن رحلته إلى هذه الديار هذه المرة للتحصيل بل للمناظرة في المسائل العلمية والقضايا الدينية أيضا.

فالمناظرات العلمية كان الغرض منها في نظر أبي راس التأكيد على نباهته وتفوقه في علوم عصره فيقول في هذا الشأن : « ففي تونس اجتمعت بعلمائها وأجلة فقهاؤها فتذاكرنا وتناظرنا وترافعنا... في جميع الفنون الدقيقة...»، وفي القاهرة « لقيت بها كبار العلماء من أهل المعرفة فتناظرنا وتذاكرنا في مسائل جمة فارتفع ذكري وأزداد فخري...»، وفي الحجاز « لقيت علماء الوهابية وهم تسعة أكابر أفضلهم الشيخ علي فوقع لي معه مناظرة واعتراضات وأسئلة وأجوبة فائقة ودلائل قاطعات وأحاديث مروية عن أكابر الأئمة، ثم تناظرنا بعد صلاة العصر قبالة الحجر في صلاة العصر وقراءة دليل الخيرات والتسبيح بالسبحة ومشاهد السادات... ودوي الكرامات، فرجعوا عن البعض بعد الاستدلال بالنصوص العظيمة العميقة»<sup>1</sup>.

وفي فاس « أحضر العلماء الأعيان وشيخهم حافظ العصر السيد الطيب بن كيران موضوعات المناظرة ولقيت الفقيه النبيه الشيخ محمد بن بنيس بحثت معه في تفسير بن عطية...»، في كل الحالات كان هؤلاء العلماء يشهدون له بتفوقه وسعة حفظه<sup>2</sup>.

أما عن هجرته إلى خارج البلاد، فيبدو أن الشهرة العلمية التي بلغها الشيخ أبوراس قد جلبت له من جهة أخرى منافسة المنافسين وبلغ بهم الحسد لدرجة التشويه من صورته ووشايتهم بهم لدى

1. محمد بن أحمد أبي راس الناصر، ص. 49.

2. محمد بن أبي راس، ص. 150.

الولاية الأتراك، فعزل من منصبه عام 1211 هـ - 1796 م، فاستاء لهذه المعاملة وعاد ثانية إلى المغرب الأقصى وحل بفاس<sup>1</sup>. فبعد ثورة الدرقاوي ونظرا لصبغتها الدينية صار الأتراك يخشون جميع رجال الدين، لم ينج من هذه التهم حتى المواليون للأتراك على غرار أبي رأس الناصري الذي عزل من مناصبه الرسمية كالإفتاء والقضاء، وقد خص هذه الثورة بكتاب سماه «درء الشقاوة في فتنة درقاوة» أشار فيه إلى ما أصابه من هذه الثورة قائلاً «ثم عممتا فتنة درقاوة وأن لم تكن فيها أتقياء بررة ولا أقوياء فجرة... فاتصلت علينا أوامر النكبات والباليات من الخوف والجوع والروع... واستمر عليها النسيان حتى نسجت عليها عناكب الهجران...»<sup>2</sup>.

## 2. الرحلة الدينية من وإلى قسنطينة :

لقد كانت قسنطينة منارة للعلم بزغت أنوارها بعلمائها في التاريخ الحديث خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين فاستقطبت العلماء من المغرب والمشرق كما كانت محطة كبيرة لركب الحج يؤمها العلماء للدراسة والتدريس من كل ناحية وصوب. فكانت بها بيئات اشتهرت بالعلم والزهد كعائلة الفقون وأم هاني وغيرها من العائلة الدينية التي حملت على عاتقها شؤون التدريس والإفتاء.

1. محمد المهدي بن علي شعيب، ص. 201.

2. محمد بن أحمد أبي رأس الناصري، ص. 61.

هجرة علماء غريس وتلمسان إلى فاس في نهاية القرن الخامس عشر ...

وتردد علماء تونس والمغرب على هذه المدينة وكذلك زيارات المشاركة زادها مكانة علمية بين حواضر العلم في المغرب الاوسط.

كما كانت الهجرة من قسنطينة علمية وطريقية (بحثا عن الطريقة وأحيانا) أو طقوسية وأحيانا جهادية، فجد الفكون صاحب « من شور<sup>1</sup> الهداية » تقول الرواية أنه هاجر إلى تونس قاصدا الجهاد ضد ملك اسبانيا شارلكان وكان ذلك سنة 941هـ بينما يذكر البعض أنه نفي وقتل في الزيتونة وهو يدرس بها. وعن نفي العلماء يذكر صاحب منشور الهداية. أن أبو العباس الحاج أحمد القسنطيني، كان من وجهاء وأعيان حاظرة قسنطينة تقلد عدة مناصب في قسنطينة، فتقدم وكالة الجامع الأعظم وهي من الخطط النبيلة في الحاضرة<sup>2</sup>. ولما ضاقت به الأمور ووشي به إلى سلطة الأتراك، خرج متطوعا إلى الحج ولم يزل على عفته وأمانته فتوفي هناك، ولما وصل خبر وفاته 1235 هـ - 1819 م، قام ابنه مقامه في الوكالة على الجامع الأعظم. كذلك كان الحال بالنسبة لمحمد الزواوي نزيل قسنطينة في عهد عبد الكريم الفقون الجد الذي عزم عن الرحيل إلى الحجاز بعد أن قال: « إن المؤمن قد يفر من ارض فيها ظلم إلى ارض يسمع أن ظلمها أعظم من الأول وهكذا يظل متنقلا بين الطرقات إلى أن يدركه الموت وهو على تلك الحال »<sup>3</sup>.

1. منشور الهدايا. ص. 39.

2. عبد الكريم لفقون، ص. 53.

3. منشور الهداية، ص. 64.

## التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري - الثاني عشر الميلادي

---

د. يوسف العابد

أستاذ التاريخ الوسيط بجامعة الأمير عبد القادر

قسنطينة - الجزائر

### تقديم :

إنّ الحراك المجتمعي الحضري والرّيفي صفة ملازمة للمجتمعات البشرية وأيّ محاولة لتعطيل هذا الحراك ستؤدي حتماً إلى أزمات اجتماعية حادّة مع الإشارة إلى أنّ طبيعة الحركة الاجتماعية تأخذ دلالات معيّنة ومؤشّرات واضحة تعبر عن حالة المجتمع وتطلّعاته.

إنّ بلاد المغرب عرفت حراكاً قبلياً متتالياً ما يكاد مدى الحراك الأوّل يهدأ حتّى تظهر مؤشّرات جديدة تنبئ بحراك يتهيأ وكلّ تلك التّحركات القبليّة سواء منها البربريّة صاحبة الأرض أم العربيّة الطارئة إلى بلاد المغرب.

## التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري...

هذه التحركات القبليّة كانت تتحصّر بتراكم المصالح اعتماداً على عنصر القبيلة كما حدث في فترة الفتح الإسلامي مرحلة الاستكشاف لبلاد المغرب من سنة 20 هـ إلى 55 هـ أيّ نهاية بناء القيروان ثمّ أخذ التنقل القبلي صفة التحالفات التي بدأت تتكوّن منذ نهاية القرن الأوّل الهجري إلى أن كشفت عن نفسها من خلال ثورة مسيرة المطغري سنة 122 هـ<sup>(1)</sup>.

لقد بقي التنقل القبلي مبني على حيّزة وضم المجالات الجغرافية إلى بعضها على أساس تقاطع المذاهب الدينيّة والرؤى السياسيّة ويتجسّد هذا التقاطع في المجال الجغرافي لكلّ من الدولتين الأغليبيّة (184-296) والعبديّة (280-358) وغيرها... مع استمرار هذا التنقل القبلي والحراك المجتمعي إلى أن حلّ القرن الخامس الهجري<sup>(3)</sup>. الحادي عشر الميلادي حيث عرفت بلاد المغرب حراكاً قبلياً ومجتمعياً واسع النطاق تسبب في تفرغ مجالات جغرافيّة وملء مجالات أخرى على مستوى المغرب الأقصى والأوسط وكذلك الأدنى.

\*\*\*

لقد عرفت بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي أكبر وأسع تنقل قبلي وأسرع حراك مجتمعي حضري كان أو ريفي والسبب في ذلك يعود إلى عدّة عوامل متداخلة أولها يتجسّد في ممارسات نظام الحكم العربي الوافد على سكان المغرب البربر وثانيها الصّراع والتدافع بين القبائل البربرية والعربيّة



بسبب السّبق والحيّازة لمجالات جغرافية سهلة على حساب المجالات الجبليّة وثالثها التّدافع السّياسي المبطن بالمذهبيّة الدّينيّة ويبقى التّدخل المشرقي والأندلسي أحد الأسباب الرئيّسيّة في عدم استقرار الأوضاع الاجتماعيّة.

كلّ ذلك دفع بالموّحدين سنة (515هـ/1120م) لبداية تحريك المجتمع المغربي نحو تأسيس الدّولة وتخطّي الحراك على أساس قبلي أو مذهبي.

التّنقل القبلي خلال القرن السّادس الهجري الثّاني عشر الميلادي لقد تركت تحرّكات القبائل والتّحالفات القبليّة خلال القرن الخامس الهجري فراغاً كبيراً فعلى مستوى الصّحراء جنوب المغرب الأقصى بقي المجال الجغرافي الذي كانت تعمره قبيلة صنهاجة الصّحراء موحشاً الأمر الذي أفسد الحياة في المراكز التجاريّة وجمّد المسالك التجاريّة المؤدّية إلى مدينة أودغشت<sup>(3)</sup>، وسجلماسة وديار لمطة. وبالمقابل تغيّرت أساليب الحراك المجتمعي الحضري والرّيفي في بلاد المغرب الأقصى وذلك بما رافق صعود قبيلة صنهاجة الصّحراء.

وعلى مستوى المغرب الأدنى فلم يستقرّ الوضع بعد وذلك بفعل أنشطة العبيديين ومحاولاتهم تغيير الأوضاع السّياسيّة والاقتصاديّة على مستوى بلاد المغرب. أمّا بلاد المغرب الأوسط فقد كانت أرض تلاقي طموحات المتوجّهين من جهة الغرب نحو الشرق وهم الصنهاجيين مع طموح العبيديين المتوجّهين من الشرق نحو الغرب

## التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري...

وكثيراً ما كانت تُصَفَى الحسابات السياسيّة والمذهبيّة على بلاد أرض المغرب الأوسط. الأمر الذي ساهم في تنقلات قبلية عشوائية تُحرّكها التوجّهات الدينيّة والسياسيّة زيادة على جذب العامل الاقتصادي حيث ارتفع المستوى المعرفي للسكان الحضاري وتطلّعوا نحو حياة أفضل. ومن غير شكّ كان اعتقادهم أنّ الشمال يوفر الظروف لتحقيق ذلك التطلّع لكنها وجدت مقاومة شديدة أبدتها قبيلة زناتة المستوطنة فقد دارت معركة كبيرة بين زناتة وصنهاجة سنة (447هـ / 1055م) انهزمت زناتة على إثرها وتوزّعت عشائرها<sup>(4)</sup>.

واعتباراً لدواعي أمنية ودينية واصلت صنهاجة استعدادها حيث تدعّم حجمها بانضمام قبائل أخرى إليها مثل جزولة، ولتونة ومسوفة، وقد مكّنها تقدّمها نحو الشمال من احتلال بلاد السّوس الأقصى وضمّ قبائل جديدة، وتفريغ أخرى الأمر الذي زاد من سعة مجال سيطرتها على بلاد جزولة وماسة وتارودانت عاصمة المنطقة، وقد مهّد هذا التمكين إلى الإستيلاء على مدينة أغمات ذات الإستراتيجية التجارية المهمّة وكان ذلك سنة (449هـ / 1057م)<sup>(5)</sup>.

ثم بعد ذلك تحركت القبائل الصنهاجية نحو الشمال الشرقي لإقليم السّوس الأقصى فجازت مدينة تادلا وما جاورها بعد قتال عنيف ضدّ عشائر وبطون قبيلة بني يفرن وهوارة ومطماطة<sup>(6)</sup>، الأمر الذي أدّى إلى تفريغ الإقليم الذي يعتبر موقعاً إستراتيجياً يمكن من السيطرة على بقية الأقاليم المحيطة به، فهو يمثل القلب بالنسبة لهذه البلاد<sup>(7)</sup>. وإقليم تامسنة هو الموطن الأصلي لقبيلة برغواطة المصموديّة التي وقفت في وجه التقدّم الصنهاجي نحو

الشمال واشتبكت معهم في مواقع عديدة وملاحم شديدة مات فيها خلق كثير، واستشهد في إحداها صاحب الدعوة المرابطية عبد الله بن ياسين في جمادى الأول من عام (451هـ/1059م)<sup>(8)</sup>، ونظراً لأهمية هذا الإقليم دعم المرابطون قوتهم وواصلوا حصارهم وقتالهم للعناصر البرغواطية ومن تحالف معهم<sup>(9)</sup>. وبعد جهد مضني تمكن المرابطون من هزيمة برغواطة. وأسرفوا في قتلهم وتشريدهم خارج الإقليم، وتفرق البرغواطيون في الفياض والقفار وأصبح المجال الجغرافي لإقليم تامسنة فارغاً من سكانه، مستقبلاً لقبائل أخرى كانت تسكن الصحراء، الأمر الذي يطرح مشاكل عمرانية جديدة.

إن انتصار المرابطين على البرغواطيين جعلهم يفكرون في بناء مدينة قريبة من الإقليم فكانت مراكش حيث شرع في بنائها عام (454هـ/1062م)<sup>(10)</sup>، ومنها توجه يوسف بن تاشفين إلى تامسنة مرة ثانية لبيسط نفوذه على المنطقة، وترتيب الأوضاع استعداداً لمواصلة الزحف نحو إقليم فاس وجبال قبائل غمارة. وتم لهم ذلك ابتداء من سنة (455هـ/1067م) حيث عمد المرابطون إلى تتبع قبائل غمارة ومطاردتهم إلى جهات أبعد من الحدود الشرقية لبلاد ورغة وهكذا استولوا على بلاد ملوية وجميع بلاد الريف ووهران ثم تلمسان وجبال الونشريس.

بربر المغرب الأدنى والأوسط :

لم يجد العبيديون أفضل وأنسب من قبيلة صنهاجة تلكاتة (11) لأجل الحفاظ على نفوذهم ومذهبهم في بلاد المغرب بعد رحيلهم إلى مصر (12).

وكانت قبائل تلكاتة قد استوطنت المغرب الأدنى وبعض الأجزاء الشرقية من المغرب الأوسط، هذا مع انتشار أفخاذ وعشائر صنهاجية في جهات متفرقة من بلاد المغرب عامة نذكر منها قبيلة بطيوة (13) ومنذلة وهسكورة (14) وبنو عمران (15) وبنو حميد (16) وقبيلة المدية (17) هذه الأفخاذ التي ألفت العيش بجانب قبائل بربرية كبيرة قد امتازت بجنوحها إلى السلم والتعايش وقد امتدت أراضيها من المسيلة إلى جزائر بني مزغنة (18) والمدية.

ولصنهاجة تلكاتة انتشار في المغرب الأقصى حيث اتخذت بعض الأفخاذ المجال الجغرافي وسيلة لأمنها وإطاراً لإقامتها ونمط حياتها وامتنع بعضها عن التعامل مع السلطة الحاكمة مثلما فعلت صنهاجة العز التي استوطنت على ضفتي نهر درعة (19) واحترفوا الفلاحة والحياسة وامتنعت عن دفع الضرائب (20)، في حين استوطنت بعض القبائل الصنهاجية بالقرب من المدن ونزلت إلى السهول والبساتن، وتقربت من السلطة الحاكمة متجاوبة مع دعوتها للاستنفار ودفع الضرائب لذلك عرفت بصنهاجة الذل، وكان أكثرهم يقيمون بالقرب من مدينة أزموور (21) هذه القبائل الصنهاجية كانت عاملاً مساعداً لصنهاجة الشمال أثناء تحركاته التوسعية المنطلقة من بلاد إفريقية نحو المغربيين الأوسط والأقصى والجدير بالإشارة

أنّ صنهاجة تلكاتة قد شكّلت فعلاً منعظاً تاريخياً لسكان بلدان المغرب تمثل ذلك في تجسيد وإقامة نظام سياسي واضح المعالم يدير أنشطته البربر أنفسهم ويسعون لتحقيق وحدة سياسية تبسط نفوذها على بلاد المغرب ابتداء من بناء النظام السياسي الذي عمد إليه حمّاد بن بلكين حيث شرع في تأسيسه على أرض المغرب الأوسط ابتداء من سنة (395 هـ/1004م) <sup>(22)</sup> وبدأ الصنهاجيون في بناء المدن وهو الجانب الذي يعبر عن المستوى الحضاري الذي بلغته قبائل صنهاجة الشمال فبعد أن تجمّع السّكان في السّهول والبساتط شرعوا في شقّ الطّرق، وترتيب الأسواق التّجاريّة، فقد تمّ ترميم الحصون والقلاع، ومن المدن التي أعادوا الحياة إليها نذكر مدينة دّلس <sup>(23)</sup> ومدينة ندرومة <sup>(24)</sup> والشّان نفسه بالنّسبة لمدينتي المديّة سنة (400/1008م) <sup>(25)</sup>. وبجاية (468 هـ/1076م)، وجزائر بني مزغنة سنة (399 هـ/1007م) وأشير <sup>(26)</sup> وهكذا يتّضح أنّ البربر تخطوا فعلاً الطّرح القبلي وانتقلوا إلى مستوى الدولة الذي سيتعرّز لاحقاً مع ظهور صنهاجة الجنوب ثمّ الموحدّين، وهذا دليل واضح على التّحولات الفكرية والاجتماعية التي عرفها البربر في بلاد المغرب <sup>(27)</sup>.

### إتمام الوحدة السياسيّة :

كانت قبيلة مصمودة البربرية البرانسية <sup>(28)</sup>. قد استوطنت بلاد المغرب الأقصى منذ وقت مبكر، وانتشرت مساكنها في مجالاته من الجنوب إلى الشمال، وقد عرفت القبائل الشماليّة بمصمودة

الشمال<sup>(29)</sup>، في حين عرفت القبائل التي استوطنت الجهة الجنوبية بمصمودة الجنوب<sup>(30)</sup> فمصمودة الشمال تتزعمها قبيلة غمارة التي استوطنت الجزء الغربي للجبل الذي تسمى باسمها - جبل غمارة- وأقامت بعض عشائرها في مدينة وضواحي طنجة<sup>(31)</sup>. وبلاد الريف، في حين عمّرت قبيلة حاحة<sup>(32)</sup> المصمودية سهل السّوس، وإلى شماله استقرت بطون لمطة<sup>(33)</sup> التي امتدت رقعة مساكنهم نحو الجنوب لتلامس حدود صنهاجة الجنوب، أمّا دكالة المصمودية فقد حازت مناطق على ضفاف وادي أمّ الربيع ووادي تانسفيت وعلى غرار ذلك، استعادت بقايا قبيلة برغواطة<sup>(34)</sup> إقليم تامسنة الذي يعرف ببلاد السّوس الأدنى التابع لمملكة فاس وهو يقع بين الرباط ووادي أمّ الربيع أمّا مصمودة الجنوب فتعرف بقبائل جبل درن لطول مدّة استيطانها به. ومواقع بطون وأفخاذ هذه القبائل متجاورة. ومستقرّة لاشتغالها بفلاحة الأرض والحرف الصّناعية، زيادة على نشاطها التجاري، وترتفع كثافتهم في مناطق السّوس الأقصى وناحية مراكش وأغامت متخذة المعازل والحصون والقصور مقرّات لسكانهم نذكر من بين هذه الأفخاذ والعشائر تينمل<sup>(35)</sup> التي استوطنت جنوب غرب مراكش وبجوار كدميوة<sup>(36)</sup>، وهنتاننة<sup>(37)</sup>، هرغة<sup>(38)</sup> ووريكة<sup>(39)</sup> وعلى سواعد هذه القبائل قامت دولة الموحدين (524هـ/1130م) التي جاءت نتيجة لدعوة دينية قام بها أبو عبد الله محمد بن تومرت الملقب المهدي (485هـ/1092م - 524هـ/1129م)<sup>(40)</sup>. ابتداء من سنة (515هـ/1120م) حيث أتمّ طوافه ودعوته بمدن المغرب، وتمكّن من استقطاب جموع غفيرة

من البربر أغلبهم من قبيلة مصمودة وهذا دليل على بقاء ومِتانة العصبية القبلية في النصر ونفور البطون القبائلية التي أُنتزَع منها الولاء بالقوّة (41).

بعد استجابة القبائل لدعوة محمد بن تومرت انتقل إلى مرحلة بسط النفوذ بالقوّة وانتزاع الأراضي الرّيفية والحضرية من أيدي الصنهاجيين ومنحها للقبائل المصمودية (42).

لقد سكنت قبائل مغراوة ومكناسة مدينة مراكش بعد حصارها وتبريفها من السّكان وتوالت بقية المدن المرابطية في الخضوع لسلطة الدّولة الموحدية، غير أنّ القبائل الرّيفية احتفظت بأريافها بعد أن بايعت المهدي بن تومرت (43). وعرفت العاصمة مراكش وبعض المدن خلال العصر الموحي عمليات استيطان قام بها أولاً الخليفة عبد المؤمن بن علي عندما دعا قبيل كومية الزناتية المستوطنة منذ زمن قديم بندرومة القريبة من تلمسان وأرشكول وأسكنهم في أحياء خاصة بمدينة مراكش عاصمة الدولة الموحدية سنة (556هـ/1161م) (44).

تدخل مثل هذه الهجرات القبلية في إطار التّوازنات السّياسية التي توقفت طموحات الشيوخ الموحدين المصامدة السّاعية للاستئثار بالمناصب العليا وتوجيه سياسة الدولة، ولهذه الهجرات دور في تهذيب وتخفيف حدّ العصبية القبلية والاحتكام إلى القانون العام، وبدو أنّ مسألة تهجير القبائل من منطقة إلى أخرى قد حققت بعض أهدافها بدليل أنّ الخلفاء الموحدين قد اشتحنوها وعمدوا إلى نقل القبائل من الأرياف والأطراف إلى الحواضر الكبرى (45).

لقد كان لهذه السياسة أثر واحد على جل القبائل المصمودية التي تسكن الحواضر الكبرى وخاصة مراكش إذ حصل تعاون واندماج وتفاعل بين مختلف القبائل البربرية، أمّا على مستوى الأرياف فقد خففت الكثافة السكانية وتأثر المجال الفلاحي بفعل استغلاله فوضويا من طرف قبائل أخرى كالهلاليين والزناتيين الذين أبعادوا من أوطانهم بفعل الحروب<sup>(46)</sup>.

إن هذه التحركات القبلية على المستويين الحضري والريفي قد أضعفت نفوذ الدولة الموحدية على هذه المناطق، الأمر الذي أتاح الفرصة أمام محاولة عودة النظام القبلي والأحلاف من جديد. ويبدو أن هذه المرحلة شملت حتى بعض القبائل البترية البربرية، ومن ذلك ما حصل إزاء قبيلة فطناسة التي كانت لها حروث ومزارع بجنوب إفريقية فعهد المصامدة إلى ترحيلها قسراً<sup>(47)</sup>.

أمّا القبائل العربية قد ساهمت في تحريك المجتمعين الحضري والريفي وتعود بداية استقرار العرب في بلاد المغرب إلى ما بعد تأسيس مدينة القيروان بإفريقية التي بناها عقبة بن نافع الفهري أثناء ولايته الأولى (50هـ-55هـ/670م-675م)<sup>(48)</sup>. حيث أقامت بها قبائل عربية من بينها قبيلة فهر، غفار وغيرهم. وقد حملت بعض السّاحات والمحلات والطرق أسماء هذه القبائل، مثل رحبة القرشيين وساحة الأنصار<sup>(49)</sup> لقد استمرت الحملات العسكرية العربية على بلاد المغرب بالموازاة مع انتقال الدعاة جماعات وفرادى إلى أن تم فتح بلاد المغرب تاماً على يد موسى بن نصير (86هـ-95هـ/705م-714م)<sup>(50)</sup> حيث بدأت الهجرات



العربية تأخذ أشكالاً وصفات أخرى تراوحت بين الهجرة الدّعية والسياسية والاجتماعية.

لقد أسفرت تلك الهجرات العربية المختلفة عن تشكيل بيئات اجتماعية عربية على أرض بلاد المغرب، وقد انتشرت قبائل عربية في مجالات محدّدة من برقة، ثمّ تقدمت نحو طرابلس وما جاورها متخذةً الحصون والقلاع القديمة مقرّات للإقامة بها<sup>(51)</sup>.

بينما اتّجهت قبائل عربية أخرى نحو الجنوب حيث استوطنت مجالات جغرافية متقطّعة بين برقة وزويلة<sup>(52)</sup>، وعلل الكثير من المؤرخين تعمير هذه المجالات بالنشاط التجاري الذي أوجدته المسالك التجارية الرابطة بين بلاد السودان وهذه المناطق، فكانت مدينة قفصة وضواحيها من نصيب قبائل بني عوف من بني سليم وتحولت عشائر من ربيعة إلى مجالات مجّانة<sup>(53)</sup>، وانتشرت أفخاذ وعشائر قبيلة قضاة وقريش في مدينة سطفورة والمنستير أمّا بنو هاشم فتوجهوا إلى مدينة باجة<sup>(54)</sup> وانحازت قبائل عربية أخرى نحو الثغور الساحلية مثل عرب بني تميم الذين استقروا في تونس، كما استقر بعض أعقاب العرب الفاتحين في بلزمة<sup>(55)</sup> وأكثرهم من قبيلة قيس ومع مرور الوقت تقدّمت قبائل عربية نحو مجالات تهودا وبادس وبسكرة وسطيف مروراً بأطراف مدينة قسنطينة وميلة التي استوطنتها قبيلة بني سليم العربية<sup>(56)</sup>.

ومن جهة أخرى توجهت مجموعات من الأسر العربية إلى المدن الواقعة على محاور تجارية بغرض ممارسة النشاط التجاري كما هو الشّأن بالنسبة لمدينة القيروان، تاهرت، وبونة. وهكذا عرفت

## التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري...

بلاد المغرب خلال القرون الأربعة الأولى ازدهاراً واضحاً في ميدان الفلاحة حيث كانت تنتشر المساحات الفلاحية في كافة السهول الشرقية، وانتشر نظام السّقايات، وظهرت مشاتل عديدة من النّباتات، وتطور العمران. وظهرت الصناعات في قابس، والقطن في جهة المسيلة والحضنة<sup>(57)</sup>.

### الهوامش

1. ابن خلدون : العبر ج4. ص 113-120.
2. نعني هنا عهد الاير بن الفتوح وعجيسة ابن دوناس بن حمامة اليفرني وهو عهد تدهورت فيه أوضاع الزناتيين الذين يسيطرون عن المنطقة الممتدة من فاس حتى سجلماسة وأغمات وتامدولت. وقد امتاز هذا العهد بصراع الأميرين وظلمهما للسكان، وظهور المرابطين على أطراف البلاد. ينظر : ابن أبي زرع : (الروض) الأنيس ص110-111.
3. مدينة توجد في أقصى جنوب موريتانية وربما هي التي تعرف الآن ب:كونبي صالح وسكنها خلال القرن الرابع والخامس الهجريين في أغلبهم زناتيون إباضيون هاجمتهم فيالق المرابطين فدكت عليهم المدينة سنة 449هـ/1054م
4. ابن عذاري : البيان المغرب. ج4 ص13.
5. ابن أبي زرع الأنيس المغرب بروض القرطاس، دار المنصور، الرباط 1973 ص85.
6. السابق، نفس الصفحة.
7. ابن عذاري : البيان المغرب : ج1، ط3 بيروت 1983، صص216-217.
8. المراكشي (عبد الواحد) المعجب في تلخيص أخبار المغرب. تحقيق محمد سعد العريان بالاشتراك مع محمد العربي العلمي دار الكتاب، الدار البيضاء (د.ت) ص203.
9. السلاوي (أبو العباس) الاستصقاء لأخبار دول المغرب الأقصى. تح. ولدي المؤلف جعفر ومحمد، الدار البيضاء 1956 ص 105.
10. البكري (أبو عبيد) المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق الباروندي سلات، الجزائر 1911 ص187.
11. القلقشندي (أبو العباس) قلائد الجمال تحقيق إبراهيم الأبياري - ط2، دار الكتاب اللبناني - بيروت 1982 ص117.

11. صنهاجة تلكاتة ينتسيون لتلكات بن كرت كانت لهم زعامة على سائر فروع صنهاجة الشمال ومنم الزسريون وبنو حماد ينظر : ابن خلدون العبر ج6 صص311-370.
12. المقريري : المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ج1. بولاق 1370هـ صص352-353.
13. ابن خلدون، العبر ج6، ص ص 407-408
14. مجهول، أخبار مجموعة ص ص 16-17.
15. ابن منصور، قبائل المغرب. ج1 ص 334.
16. ابن منصور : السابق، ج1 ص 331.
17. قبيلة المدية استوطنت بالقرب من مدينة الجزائر وإليها تسب المدينة المعروفة حالياً بالمدية ينظر : أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر. ص 235.
18. جزائر بني مزغنة. مدينة بالمغرب الأوسط بناها بلكين بن زيري سنة 339هـ/1000-1001م وكانت قبيلة بني مزغنة تقطنها فتسمت باسمها- ينظر: الحسن الوزان وصف إفريقيا، ج2. ص 320.
19. نهر ذرعة. يشق منطقة الهبط ويصب في بحر انحيط. ابن منصور. قبائل المغرب ج1، ص 329.
20. ابن منصور السابق، ج1 ص 331.
21. مدينة أزمو. مدينة تقع في سفوح جبال درن. تقطنها قبائل بربرية من بطيوة السابق، نفس الجزء- ص 338.
22. عز الدين موسي : النشاط الاقتصادي في المغرب الاسلامي، ط1، دار الشرق، القاهرة 1983. ص ص72-73.
23. توفيق المدني، كتاب الجزائر ص 203.
24. الحميري، الروض المعطار، ط2 ص576.
25. المدية : مدينة بالمغرب الأوسط تبعد عن الساحل بحوالي 50 كلم، سنتها قبيلة بربرية صنهاجية تسمى قبيلة المدية باسمها الحميري، السابق، ص 578.
26. ابن حوقل، صورة الأرض، ص89.
27. ابن خلدون، العبرن ج6 ص 12.
28. قبيلة مصمودة، ابن خلدون : العبر، ج6 ص 427.
29. مصمودة الشمال : تأتي على رأس القبائل المنتشرة في شمال المغرب الأقصى وامتازت بنفورها من النظام والاستقرار أنظر : ابن سعيد الجغرافيا ص 139.
30. ابن سعيد الجغرافيا، ص139، مجهول الاستبصار، ص ص16-17.
31. ابن عذارى : البيان المغرب ج1، ص ص238-239.

## التنقل القبلي في بلاد المغرب خلال القرن السادس الهجري...

32. القاضي عياض، ترتيب المدارك، ج2. ص782.
33. السّلاوي: الاستبصار ص 31.
34. الزهري ك كتاب الجغرافيا، تحقيق محمد حاج صادق باريس، 1968 ص 136.
35. البيدق، المقتبس تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط 1971، ص38.
36. ابن صاحب الصلاة، تاريخ المن ص 38.
37. ابن صاحب الصلاة، السابق ص 273.
38. السابق، ص273.
39. ابن منصور قبائل المغرب ج1 ص 30.
40. ولد الإمام المهدي بن تومرت في بلاد السّوس الأدنى جنوب مراكش سنة 471هـ وهو من قبيلة هرغة. روجي تورنو، حركة الموحدين في المغرب ط2 تعريب د/ أمين الطيبي، الدار البيضاء 1998 ص51.
41. ابن صاحب الصلاة، السابق، ص139.
42. مبارك محمد الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ص654-655.
43. البيدق : كتاب الأنساب ص ص41-42.
44. ابن منصور : قبائل المغرب، ج1 ص 309.
45. ابن أبي زرع، روض القرطاس. ص 192.
46. ابن صاحب الصلاة. تاريخ المن بالإمامة ص ص 412-420.
47. ابن خلدون : العبر ج6، ص 19.
48. مجهول الاستبصار، ص 186.
49. الحميري : الروض المعطارن ص121.
50. ابن عبد الحكيم فتوح مصر والمغرب، القاهرة 1920، ص ص 198-199.
51. السابق : ص ص 100-170.
52. الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب، تونس 1968، ص 139.
53. الإدريسي : نزهة المستاق، ص118.
54. البكري : المغرب. ص56.
55. الحميري : الروض المعطار، ص103.
56. أحمد بن عبد الدائم الطرابلسي : التذكار، القاهرة 1358هـ ص ص 24-25.
57. اليعقوبي : كتاب البلدان، ط3 المطبعة الحيدرية، النجف بغداد 1957، ص 352.

## الرحلة بين النبل والجشع الإنساني

د. العربي القلي

رئيس فرقة بحث بمخبر حركات الهجرة،

أستاذ تعليم عالي بقسم الانجليزية

كان الإسلام من بين الأديان السماوية التي كانت تحث على اقتناء العلم مهما كان مصدره وذلك ابتغاء التقدم والرفي بأفراد المجتمع، وقد كان هذا شأنه في شأن الرحلة حيث دعا علماء المسلمين إلى القيام بالترحال والتنقل من مكان إلى آخر طلباً للعلم ومحاولة معرفة أحوال الأمم الماضية والحاضرة لقد قال تعالى

« قل سيروا في الأرض ثم أنظروا كيف كان عاقبة المكذبين »<sup>1</sup>

ومن بين الأهداف الثمينة للرحلة التي دعا إليها الإسلام نذكر التقرب من الله عز وجل وفي هذا السياق قال تعالى : « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله »

1. سورة الأنعام الآية 2

### هل في الرحلة فوائد ؟

إن الدارس للعديد من الرحلات التي قامت بها شخصيات تاريخية هامة في العديد من الأوطان والأقوام تتضح له أنهم جنوا من هذه الرحلات فوائد جمة عادت بالنتج عليهم وعلى أقوامهم وحتى على الأوطان التي نزلوا فيها ومن بين هذه الفوائد نذكر ما يلي :

إن من بين المكاسب الهامة التي يجدها الراحل هو أن يعلم عن تلك الأوطان التي هو بشأن زيارتها أشياء لم يكن يعلمها من قبل وذلك لاحتكاكه برجال العلم والعلماء الذين يمثلون تلك الأوطان وهذا ما أكده بن خلدون في مقدمته الشهيرة حيث قاله : « إن الرحلة في طلب العلم ولقاء الأساتذة مزيد كمال في التعلم » وجاء في ختام قول « فالرحلة لا بد منها في العلم لاكتساب الفوائد بقاء المشايخ والتلقي عن الرجال »

كما إن الرحلة تعلم الذي يقوم بها أخلاقا عالية كالصبر على المشاق وعلى مختلف الأتعاب البدنية وبقية الآلام النفسية. كما إن الراحل في تنقله من موقع إلى آخر يتمكن من ملاقة رجال يختلفون عنه في الثقافة وفي رباطة الجأش، فعندما يحتك بهم يأخذ منهم من مكارم أخلاقهم ويريد أن يقتاد بهم كي يتعلم عليهم ويكون هو بدوره قدوة في وطنه عندما يعود إليه.

### بماذا يمتاز كل من الرحلة والراحل ؟

ومن بين الميزات التي يمتاز بها الراحل أنه يحاول قدر ما استطاع أن ينصف البلد الذي ينزل فيه، كأن يحاول أن يذكر محاسنه،

ويثني بالشكر على أهلها لما يلقاه منهم من مؤانسة وغبطة<sup>1</sup> وهذا ما ورد عن تاج الدين السرخسي عندما نزل ببلاد المغرب الأقصى إذ ما إن سمع بوصوله الملك يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن حتى استدعاه إلى بلاطه وما إن دخل عليه بإداره قائلاً : « إين بلادنا من بلادك الشامية »

فأجابه السرخسي : « بلادكم حسنة أنيقة ولكن فيها عيب واحد » فقال الملك : « ما هو ؟ »

فقال : « أنها بحق تنسى الأوطان »

#### بماذا يمتاز الرحال الغربي ؟

إن معظم الرحالين الغربيين يمتازون بشجاعة وإقدام نادرين، إذ ما إن ارتمت أعينهم على مختلف البحار والمحيطات حتى بدأوا يحملون بما عساهم سيجدون وراءها.

إن التاريخ الإنساني زاخر ومليء بالرجال العظماء الذي قاموا برحلات عظيمة حول العالم بأسره ابتداء بماركو بولو في القرن الثاني والثالث عشر

ورغم فخامة وعظمة اكتشاف هؤلاء الرحالة وما نتج عن اكتشاف هؤلاء الرحالة وما نتج عن اكتشاف الأمريكيتين ومختلف الجزر الواقعة في المحيط الأطلنطي والهادئ من تغييرات شبه

---

1. عن محاضر للشيخ محمد لخضر حسين شيخ جامع الأزهر وهي موجودة حالياً بالمجمع العلمي العربي بدمشق في جمادى الآخرة عام 1357 هـ. ونشرت في مجلة المجتمع في الجزء السابع والثامن من المجلد الخامس عشر.

جذرية بالنسبة للعالم بأسره إلا أن هؤلاء الرحالة لم يكونوا إطلاقاً أنبل المكتشفين<sup>1</sup>.

والسؤال هنا هو هل توجد علاقة وطيدة بين النبل وسائر الأهداف التي كان يسعى هؤلاء المكتشفين تحقيقها؟ رغم ما يتعرضون إليه من مخاطر وأهوال خلال ترحالهم؟

وللإجابة يمكن القول هنا أن أغلب هذه الدوافع كانت تجارية بحتة في البداية تم ما لبثت أن انقلبت إلى دوافع استعمارية بحتة ترمي أساساً إلى محق شعوب وقبائل قصد احتلال أراضيه وامتصاص خيراتها وجلبها إلى الوطن الأم كي يجعلوا منه إمبراطورية وقوة بحرية تجوب البحار كي تذلل الشعوب وتمنعهم من التقدم الاقتصادي والعلمي.

لهذا كانت كل من رحلات ماجلان Magellan وفاسكو دي قاما Vasco Da Gamma وكريستوف كولومب<sup>2</sup> Christophe Colombe بمثابة رأس حربة استعملتها كل من إسبانيا والبرتغال لاكتشاف ثم الانتقاضي على القبائل الهندية في أمريكا الشمالية والجنوبية والإفريقية و الآسيوية لطمس حضارتهم والاستيلاء على المعادن النفسية وجلبها فيما يعد إلى إسبانيا والبرتغال

وهذا ما قام به القائد الإسباني كورتاز Cortez في أواسط المكسيك حيث قام بالتنكيل ثم القضاء نهائياً على قبائل هندية بأكملها

1. نفسه ، ص 3.

2. انظر كاتب (كريستوف كولومب) أحد كتب سلسلة عباقره خالدون.



ثم وسع من هجوماته جنوبا وشمالا ومد أطراف الإمبراطورية الإسبانية في أمريكا الشمالية والجنوبية إلى أقصى حد ممكن.

بعد هذا الاستعراض السريع لهذه الأحداث الهامة التي قام بها أو تسبب في إحداثها رحالة أوروبيون يمكن القول أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نصف مثل هذه الاستكشافات بالنبيلة مهما بلغت نتائجها، لأن هدف كرسstof كولمبوس وغيره لم يكن لمجرد الاستكشاف العلمي أو السعي لنشر رسالة إنسانية بين أفراد مجتمعات كانت مجهولة في السابق بل كان الهدف هو إكتشاف واستعمار ثم إذلال الشعوب أينما وجدت على سطح هذا الكوكب

وينطبق هذا القول على الأغلبية الساحقة من الرحالة الأوروبيون غير أنه يمكننا أن نستثني منهم رحالة ومكتشف قديم كانت تحدوه أهداف نبيلة وتدفعه إلى القيام بمغامرات عظيمة باتجاه الشرق الساحر وهذا الرحالة يدعى ألكسندر المقدوني<sup>1</sup>.

في بداية الأمر قرر هذا القائد الشجاع أن يزحف بجيوشه باتجاه الأصقاع الواقعة شرق اليونان حتى وصل بلاد الهند بعد إن اجتاز كامل بلاد فارس وكان هدفه واضحا منذ البداية ألا وهو استكشاف وجعل بلدان الغرب يعرفون أكثر عن هذه الأمصار المجهولة بعد أن كانوا يسمعون عنها فقط من خلال الخرافات والأساطير.

وكان أيضا يسعى جاهدا إلى جعل شعوب الأرض كلها متساوية لا يسود شعب على آخر رغم أنهم يختلفون فيما بينهم من حيث اللون والجنس ومستوى الثقافة وما شابه ذلك.

1. أنظر كتاب الألكسندر (الأكبر) أحد كتب سلسلة (عباقره خلدون)

لهذا السبب اتسعت الإمبراطورية التي أسسها حتى إنه لم يستطع أن يحقق السيطرة الإدارية الفعلية لمختلف مناطقها وذلك لشساعة وترامي أطرافها وفي الأخير توفى ألكسندر وبقي التاريخ يشهد له بعظمة إنجازاته.

والسؤال هنا هو إلى أي صنف ينتمي الرحالة المغربي الشهير بن بطوطة ؟ أهو ينتمي للصنف الأول من الرحالة الطامعين في امتصاص خيرات الشعوب وإذلالها أم إلى الصنف الثاني الذي كان يرمي إلى تحقيق أهداف علمية وإنسانية محضة ؟

إن الدارس لمذكرات ابن بطوطة التي كتبها عند عودته إلى وطنه يتضح له أنه تكبد مشاق كثيرة في رحلته التي قام بها والتي قطع فيها حوالي ستين ألف ميل بالرغم من أن وسيلته الوحيدة التي اعتمدها في التنقل كانت أساسا الجمل أو القدمين.

في الأول كان بن بطوطة طواقا لليوم الذي يبدأ فيه رحلته نحو بيت الله الحرام أولا ثم يتقدم فيها بعد نحو الشرق الساحر المليء بالكثير من الأسرار التي يجب استكشافها. لهذا السبب الرئيسي انطلقت القافلة الأولى التي كانت بصحبة بن بطوطة من مدينة طنجة التابعة لمقاطعة مراكش في الثاني من شهر رجب سنة 725 هجري.

### في قسنطينة

وكانت مدينة تلمسان أول محطة للقافلة عند دخولها الأراضي الجزائرية من الجهة الغربية ثم اتجهت شرقا ودخلت مدينة

قسنطينة من الجهة الغربية. وكان لدخول بن بطوطة قسنطينة<sup>1</sup> أثره الطيب في نفوس حكام ومواطني هذه المدينة التاريخية الشهيرة، إذ كانت الفترة التي قضاها في هذه المدينة مناسبة سانحة سمحت له بأن يلتقي ويتبادل الأحاديث مع الوافدين الجدد إلى المدينة من مختلف أصقاع إفريقية وباقي مناطق المغرب الإسلامي سائلا إياهم ومدونا كل المعلومات التي يتلقاها عن تجارة أوطانهم وطريقة عيشهم وكيفية فلاحه أراضيهم.

لقد كانت قسنطينة في تلك الفترة همزة وصل بين مختلف القوافل الآتية من غرب، شرق وجنوب القارة الإفريقية.

ونظرا للموقع الاستراتيجي لهذه المدينة ونظرا للعدد الهائل الذي كان يفد على المدينة، فقد استغل بن بطوطة هذه الوضعية وأخذ يدرس ويدون عادات مختلف الأشخاص الذين جاؤوا ضمن هذه القوافل.

وبعد أن قضى بن بطوطة فترة من الزمن في قسنطينة واصلت القافلة اتجاهها نحو الشرق وأصبح عدد أفرادها يتزايد كلما مرت بإحدى المدن الهامة في كل من تونس والجزائر وكان عدد الحجاج يتزايد باستمرار وكانوا يفضلون أن يسيروا في قوافل بحثا عن الأمن والطمأنينة وتفاديا لهجمات قطاع الطرق واللصوص وخلال فترة تواجده بقسنطينة كان المسافرين يعتبرون بن بطوطة بمثابة الزعيم الروحي والديني الذي يجب أن يعتد به ولهذا كانوا كلهم

1. انظر كتاب سن لي الذي ترجم جزءا كبيرا من كتاب ابن بطوطة في سنة 1820م وأطلق عليه اسم أسفار ابن بطوطة the Ibn batuta travels

يستفتونه في مشاكلهم الحياتية ويريدون أن يبدي رأيه فيها بكل وضوح خاصة فيما يتعلق بأمور الدين و الفقه الإسلامي. وعلى إثر النشاطات المتزايدة لبن بطوطة في قسنطينة ذاع صيته في المدينة.

وبعد أن تعرف حاكم المدينة على قدراته الدينية والثقافية والاجتماعية، استدعاه إلى بلاطه كي يأخذ رأيه في بعض المشكلات الفقهية الهامة والتي كان فقهاء الذين يختلفون فيها. لهذا اهتم به حاكم المدينة وأكرمه أيما إكرام وذهب به حد إسناده بعض المنح المالية.

وفي هذه الأثناء أكد بن بطوطة للحاكم القسنطيني بأن رحلته هذه لن تقتصر فقط على الذهاب إلى الأراضي المقدسة بل سيتعدى هذا إلى الكثير من أصقاع العالم بغية إيجاد ميكانيزمات للتعريف بالمغرب الإسلامي وإيجاد صلات بينه وبين هذه الأمصار البعيدة الموجودة في آسيا وإفريقيا ومحاولة نشر الدين الإسلامي مستعملا الإقناع كوسيلة فعالة ولا التهديد والوعيد.

وقد أشرف حاكم المدينة بنفسه على توديع بن بطوطة بعد أن قام بتزويد القافلة بما تحتاج إليه من نفس ونفيس

### في الإسكندرية :

وبعد أن قطع كامل الصحراء الليبية والصحراء الغربية المصرية، دخلت أخيرا قافلة بن بطوطة مدينة الإسكندرية الساحرة، وقد

نال من رجاله تعب كبير، فأراد الجميع أن يخلدوا إلى الراحة ولو لفترة زمنية قصيرة، إلا أن بن بطوطة لم يضيع وقته فأنطلق يجوب أنحاء المدينة طولا وعرضا محاولا أن يعرف الكثير عن سكانها وعن طريقة عيشتهم كي يقوم بتدوينها في مذكراته.

والدارس لمذكرته يلاحظ أنه قد أطنب في وصف جمال المدينة ومحاسنها وآثارها الرومانية وأعجب أيما إعجاب بعمود السواري الذي مزال موجودا بالإسكندرية حتى وقتنا الحاضر.

### في القاهرة :

إن زيارة بن بطوطة إلى القاهرة جاءت في فترة ذهبية معني هذا أنه في هذه المرحلة تمكن القائد الفذ صلاح الدين الأيوبي<sup>1</sup> من الالتفاف على جيوش الصليبين في سهل حطين وقام باقتحام مدينة القدس في أكبر عملية عسكرية اعترفت له بها أوربا قاطبة وأجبر قائد الصليبين شارل قلب الأسد Hoert of the lion على الاستسلام وتسليمه مفاتيح المدينة له.

وبعد هذه الكارثة الموجهة التي حلت بالصليبين عادوا من حيث أتوا مطاطئي الرؤوس يجرون أذيال الخيبة.

وكان أول ما قام به بن بطوطة أن دون شعور الشعب المصري بهذا الإنجاز العظيم الذي حققته مصر وباقي الشعوب العربية المجاورة إلى فلسطين.

---

1. أنظر كتاب صلاح الدين الأيوبي في سلسلة عباقرة خالدون تصدر في المكتب العالمي بيروت.

وإثر وجوده في القاهرة وصف بن بطوطة أهل هذه المدينة على أنهم أناس ميالون إلى المرح والطرب ولكنهم مع ذلك أناس يكفون قصد الحصول على لقمة العيش اليومية.

وفي هذه الأثناء، نفت انتباه بن بطوطة نهر النيل العظيم الذي يشق كامل تراب مصر قادما إليها من قلب القارة الإفريقية وقد كان نهر النيل يسمى في القرآن باليم نظرا للمساحات الشاسعة التي يغطيها من أراضي مصر، إذ كأنه بحر ينساب من الجنوب باتجاه الشمال.

ولما قاربت زيارة بن بطوطة للقاهرة على نهايتها عرج على الأهرامات وقام بالتجوال فيها سائلا عن بعض الأسرار التي كانت تحيط بكيفية بنائها وما كانت تحويه داخلها من أسرار حول كيفية دفن الفراعنة وثوراتهم الهائلة التي لا تقاس بأي ثمن.

كما زار بن بطوطة بعد ذلك بعض المساجد التاريخية كجامع الزهر وبعض الأضرحة التي كانت لها علاقة ببيت الرسول صلى الله عليه وسلم.

### في بيت المقدس

وقبل أن يصل بن بطوطة إلى عروس الميدان، زار الخليل وخصها بوصف دقيق شمل مساجدها وشوارعها ومغازلها.  
وبعد هذا اتجه صوب مدينة القدس وأول ما بدأ به وصفه المسجد الأقصى حيث خصه بالعبارات التالية :

« هو من أجمل مساجد الأرض، ... له أبواب كثيرة في جهاته الثلاثة. وأما الجهة القبليّة فلها باب واحد وهو الباب الذي يدخل منه الإمام » كما ذكر بن بطوطة في وصفه للمسجد الأقصى الصخرة التي تتوسط المسجد الأقصى وهذا ما جاء في وصف هذا الرحالة الشهير :

« هي صخرة صماء، ارتفاعها نحو قامة وتحتها مغارة في مقار بيت صغير ارتفاعها نحو قامة أيضا »

وبعد زيارة المسجد الأقصى غادر مدينة القدس ثم جال في مختلف مدن الضفة الغربية حتى وصل إلى لبنان حيث دخلها قادمة إليها من الجنوب واتجه شرقا حيث دخل مدينة دمشق.

وفي مذكراته التي دونها في طنجة أعطى صورة واضحة على أغلب المدن اللبنانية و السورية وفي صفه لمدينة بعلبك ورد ما يلي: «إنها مدينة حسنة تحيط بها البساتين الشريفة والجنات المنيعة وتخرق أرضها الأنهار الجارية وتضاهي دمشق في خيراتها المتناهية.»

### في المدينة المنورة

وبعد تجواله في مختلف مدن الشام اتجهت قافلة بن بطوطة جنوبا تبغي الوصول إلى المدينة المنورة حيث كان بن بطوطة ينوي زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم. وفي مذكراته التي دون فيها هذه اللحظات الخالدة من حياته وصف بن بطوطة أحاسيسه

الجياشة التي اجتاحت قلبه كما تجتاح قلب كل مسلم يقف على قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهذه بعض من تلك الأحاسيس التي وصفها في مذكراته :

« لقد حججت إلى بيت الله الحرام وزرت قبر الرسول أكثر من مرة والحمد لله. وفي كل مرة تتمكنني وتستبد بي نوبة البكاء ».

### في العراق :

بعد أن قضى بن بطوطة ردهة من الزمن في المدينة المنورة ومكة المكرمة وبعد أن أعجب بمباني مكة والكعبة الشريفة والحجر الأسود كما فتن بأهل مكة وملابسهم البيضاء وبعد أن زار قبور المهاجرين والأنصار جهز قافلته وجعلها تتجه شمالا يبغي زيارة بلاد دجلة و الفرات.

وأول ما قم بزيارته هو النجف ثم تقدم شمالا وزار مدينة البصرة الخالدة ووقف على أضرحة كل من طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه والزيبر بن العوام<sup>1</sup>، والسيدة حليلة السعدية مرضعة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم بقافلته شرقا واجتاز مياه شط العرب حيث وصل إلى مدينة عبادان ووصفها أحسن الوصف ثم وصل إلى مدينة أصفهان ويعدها قرر زيارة شيراز في فارس الغربية حيث أعجب بها أيما إعجاب حيث ورد في مذكراته ما يلي :

1. أنظر كتاب (العباس ابن علي) في سلسلة "عظماء الإسلام" التي تصدر عن دار (المكتب العالمي) بيروت.



« ليس في بلاد الأرض منطقة تداني دمشق في بسايتها وأنهارها  
وحسن صور سكانها إلا شيراز البهجا ». «  
ثم قفل بن بطوطة راجعا إلى بغداد حيث خصها بالوصف الآتي :  
« إن بغداد دار السلام وحضارة الإسلام ذات القدر الشريف  
والفضل المنيف وهي مئوى الخلفاء ومقر العلماء »  
ويفهم مما تقدم أن الرحلات التي قام بها بن بطوطة إلى مختلف  
القرى والمدن في بلاد الرافدين، في الشام، أو في بلاد نجد كانت  
بالأساس ترمي إلى وصفها وتحديد إطارها الجغرافي والسياسي  
والاجتماعي التاريخي والعلمي وليس فقط لمجرد اكتشافها ثم  
الانقراض عليها لإذلالها واستغلال خيراتها كما هي الحال  
بالنسبة للعديد من الرحالين الغربيين.

#### في الهند والصين وآسيا الوسطى :

وبعد أن أتم اكتشافه التاريخي والعلمي والديني لبلاد ما بين  
الرافدين، اجتاز بقافلته بلاد فارس ووصل إلى بلاد الهند شرقا  
وفي مذكراته وصف بن بطوطة العادات والتقاليد العجيبة لسكان  
بلاد الهند.

وقد ورد في إحدى مذكراته ما يلي :

« تعاهدت النسوة الثلاث على إحراق أنفسهن بعد مقتل  
أزواجهن... أقمن قبل ذلك ثلاث أيام بعد غناء وطرب وأكل وشرب  
وكانهن يودعن الدنيا.

وفي صبيحة اليوم الرابع جاءت واحدة منهن وكانت تركب فرسا... كما كانت متزينة بأروع زينة يفوح منها العطر وفي يمينها مرآة لها إطار ذهبي تتأمل فيها وجهها وكأنها عروس مشوقة إلى « خدر » زوجها الحبيب.

وكنت أرى الناس يحيونها في حرارة ويصيح فيها أحدهم قائلاً :  
- أبلغني سلامي إلى أمي.

ويصيح آخر أبلغني سلامي إلى أبي

وكانت المرأة تجيب بنعم على كل واحد منهم وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مشرقة وهي تتمايل على الأنغام وكأنما تستعجل اللقاء بروح زوجها الحبيب الذي مات وقالت ضاحكة :

« أتحسبونني أخاف منظر النار »

سأشكرها الآن لأنها ستوصلني إلى زوجي الحبيب.

ثم جمعت يديها إلى رأسها كأنها تشكر النار فعلا ورمت بنفسها فيها «

وبعد قضائه فترة من الزمن في الهند عبر مضائق الهمالايا the himalaya mountains قاصدا بلاد الصين حيث دون في مذكراته بعض ما شاهده من فنون الصين في الرسم والصناعات اليدوية والطبخ وما اشتهروا به من الحكم.

الخاتمة :

إن الدارس لما تقدم يتضح له من أن الرحلات التي قام بها بن بطوطة إلى أصقاع كثيرة من العالم تختلف كثيرا عن تلك الرحلات التي قام بها غيره من الرحالة الأوروبيون من ذلك أن بن بطوطة كان يرمي أساسا من القيام بهذه الاستكشافات إلى الإطلاع عن كثر عما وصلت إليه بعض الحضارات في أماكن عديدة من العالم ومحاولة نقل بعض أفكارها ونقل صورة واضحة عن التطور العلمي الذي وصلت إليه إلى مدينة مراکش في المغرب ومن ثم محاولة نشرها في باقي أنحاء المغرب الإسلامي ولما لا في باقي أنحاء العالم العربي أيضا كما أن بن بطوطة كان يبغى نشر تعاليم الدين الإسلامي السمحة في العديد من الأصقاع النائية التي زارها كي يخرج بعض من هذه المجتمعات من تخلفها الذهني والخلقي والاجتماعي.

وكان بن بطوطة يقوم بهذا العمل المجدي عن طريق الإقناع وليس عن طريق الإرهاب والترهيب كما قام بذلك المبشرون المسيحيون فيما بعد في أمريكا الجنوبية.

إن هدف بن بطوطة كان بحق هدفا نبيلًا ولم يكن في أي وقت من الأوقات يقوم بالرحلة من أجل الاستكشاف والاستعمار من أجل إذلال شعوب بأسرها كما كان يهدف من وراء القيام بالرحلات مغامرون أوروبيون ككرستوف كولومب الذي قرر أن يجازف بحياته مع مجموعة من التجار كي يصل إلى بلاد الهند باتجاه الغرب.

كما قام بعده فاسكو دوفا Vasco Da Gama وجامس كوك James Cook باكتشاف قارة أستراليا والآلاف المؤلفات من الجزر المتناثرة في المحيط الأطلسي وكان هدفهم جميعا هو مساعدة حكوماتهم على إنشاء إمبراطوريات شاسعة كي تستولي على ذهب هذه الأراضي ومن ثم إذلال واستعمار شعوبها.

لقد عاد بن بطوطة إلى طنجة في عهد السلطان « أبو عنان » بعد أن قضى أكثر من 30 سنة يجوب آفاق الأرض وفد ذاع بعد ذلك صيته في جميع أنحاء المعمورة وقضى بقية حياته يكتب مذكراته ويشرح للناس الهدف النبيل من رحلته هذه داعيا إياهم أن يستفيدوا ويتعضوا ويتعلموا من الحضارات وسلوكات وحكم الشعوب التي زارها.